

تفسير ابن كثير

قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ^ط فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ^ج قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ

مُمرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ ^ق قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

وقوله : (قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبتة لجة وكشفت عن ساقها) وذلك أن

سليمان ، عليه السلام أمر الشياطين فبنوا لها قصرا عظيما من قوارير ، أي : من زجاج ،

وأجرى تحته الماء ، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء ، ولكن الزجاج يحول بين

الماشي وبينه . واختلفوا في السبب الذي دعا سليمان ، عليه السلام ، إلى اتخاذها ، فقيل :

إنه لما عزم على تزويجها واصطفائها لنفسه ؛ ذكر له جمالها وحسنها ، ولكن في ساقها

هلب عظيم ، ومؤخر أقدامها كمؤخر الدابة . فساءه ذلك ، فاتخذ هذا ليعلم صحته أم لا ؟

- هذا قول محمد بن كعب القرظي ، وغيره - فلما دخلت وكشفت عن ساقها ، رأى

أحسن الناس وأحسنه قدما ، ولكن رأى على رجلها شعرا ؛ لأنها ملكة ليس لها بعل فأحب

أن يذهب ذلك عنها فقيل لها : موسى ؟ فقالت : لا أستطيع ذلك . وكره سليمان ذلك ،

وقال للجن : اصنعوا شيئا غير الموسيقى يذهب به هذا الشعر ، فصنعوا له النورة . وكان أول

من اتخذت له النورة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب القرظي ،
والسدي ، وابن جريج ، وغيرهم . وقال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان : ثم قال
لها : ادخلي الصرح ، ليربها ملكا هو أعز من ملكها ، وسلطانا هو أعظم من سلطانها . فلما
رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقها ، لا تشك أنه ماء تخوضه ، فقيل لها : إنه صرح ممرد
من قوارير . فلما وقفت على سليمان ، دعاها إلى عبادة الله وعاتبها في عبادتها الشمس من
دون الله . وقال الحسن البصري : لما رأَت العليجة الصرح عرفت - والله - أن قد رأَت
ملكاً أعظم من ملكها . وقال محمد بن إسحاق ، عن بعض أهل العلم ، عن وهب بن
منبه قال : أمر سليمان بالصرح ، وقد عملته له الشياطين من زجاج ، كأنه الماء بياضا .
ثم أرسل الماء تحته ، ثم وضع له فيه سريره ، فجلس عليه ، وعكفت عليه الطير والجن
والإنس ، ثم قال : ادخلي الصرح ، ليربها ملكا هو أعز من ملكها ، وسلطانا هو أعظم من
سلطانها (فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقها) ، لا تشك أنه ماء تخوضه ، قيل لها
: (إنه صرح ممرد من قوارير) ، فلما وقفت على سليمان ، دعاها إلى عبادة الله ، عز
وجل ، وعاتبها في عبادتها الشمس من دون الله . فقالت بقول الزنادقة ، فوقع سليمان

ساجدا إعظاما لما قالت ، وسجد معه الناس ، فسقط في يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع ، فلما رفع سليمان رأسه قال : ويحك ! ماذا قلت ؟ - قال : وأنسيت ما قالت فقالت : (رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان الله رب العالمين) ، فأسلمت وحسن إسلامها . وقد روى الإمام أبو بكر بن أبي شيبة في هذا أثرا غريبا عن ابن عباس ، قال : حدثنا الحسين بن علي ، عن زائدة ، حدثني عطاء بن السائب ، حدثنا مجاهد ، ونحن في الأزد - قال : حدثنا ابن عباس قال : كان سليمان ، عليه السلام ، يجلس على سريره ، ثم توضع كراسي حوله ، فيجلس عليها الإنس ، ثم يجلس الجن ، ثم الشياطين ، ثم تأتي الريح فترفعهم ، ثم تظلمهم الطير ، ثم يغدون قدر ما يشتهي الراكب أن ينزل شهرا ورواحها شهرا ، قال : فبينما هو ذات يوم في مسير له ، إذ تفقد الطير ففقد الهدد فقال : (ما لي لا أرى الهدد أم كان من الغائبين لأعذبه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينني بسلطان مبين) ، قال : فكان عذابه إياه أن ينتفه ، ثم يلقيه في الأرض ، فلا يمتنع من نملة ولا من شيء من هوام الأرض . قال عطاء : وذكر سعيد بن جبير عن ابن عباس مثل حديث مجاهد (فمكث غير بعيد) - فقرأ حتى انتهى إلى قوله - (قال سننظر أصدقت أم

كنت من الكاذبين اذهب بكتابي هذا) وكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) ، إلى بلقيس :

(ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين) ، فلما ألقى الهدهد بالكتاب إليها ، ألقى في روعها :

إنه كتاب كريم ، وإنه من سليمان ، وأن لا تعلوا علي وأتوني مسلمين . قالوا : نحن أولو قوة . قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وإني مرسله إليهم بهدية . فلما جاءت الهدية سليمان قال : أتمدونني بمال ، أرجع إليهم . فلما نظر إلى الغبار - أخبرنا ابن عباس قال : وكان بين سليمان وبين ملكة سبأ ومن معها حين نظر إلى الغبار كما بيننا وبين الحيرة ، قال عطاء : ومجاهد حينئذ في الأزد - قال سليمان : أيكم يأتيني بعرشها ؟ قال : وبين عرشها وبين سليمان حين نظر إلى الغبار مسيرة شهرين ، (قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) . قال : وكان لسليمان مجلس يجلس فيه للناس ، كما يجلس الأمراء ثم يقوم - قال : (أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) . قال سليمان :

أريد أعجل من ذلك . فقال الذي عنده علم من الكتاب : أنا أنظر في كتاب ري ، ثم آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . قال : [فنظر إليه سليمان فلما قطع كلامه رد سليمان بصره] ، فنبع عرشها من تحت قدم سليمان ، من تحت كرسي كان سليمان يضع عليه

رجله ، ثم يصعد إلى السرير . قال : فلما رأى سليمان عرشها [مستقرا عنده] قال : (هذا من فضل ربي) ، (قال نكروا لها عرشها) ، فلما جاءت قيل لها : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو . قال : فسألته عن أمرين ، قالت لسليمان : أريد ماء [من زبد رواء] ليس من أرض ولا من سماء - وكان سليمان إذا سئل عن شيء ، سأل الإنس ثم الجن ثم الشياطين . [قال] فقالت الشياطين : هذا هين ، أجر الخيل ثم خذ عرقها ، ثم املاً منه الآنية . قال : فأمر بالخيل فأجريت ، ثم أخذ عرقها فملاً منه الآنية . قال : وسألت عن لون الله عز وجل . قال : فوثب سليمان عن سريره ، فخر ساجدا ، فقال : يا رب ، لقد سألتني عن أمر إنه يتكايد ، أي : يتعاضم في قلبي أن أذكره لك . قال : ارجع فقد كفيتكمهم ، قال : فرجع إلى سريره فقال : ما سألت عنه ؟ قالت : ما سألتك إلا عن الماء . فقال لجنوده : ما سألت عنه ؟ فقالوا : ما سألتك إلا عن الماء . قال : ونسوه كلهم . قال : وقالت الشياطين لسليمان : تريد أن تتخذها لنفسك ، فإن اتخذها لنفسه ثم ولد بينهما ولد ، لم تنفك من عبوديته . قال : فجعلوا صرحا ممردا من قوارير ، فيه السمك . قال : فقيل لها : ادخلي الصرح فلما رآته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقها ، فإذا هي شعراء . فقال سليمان

: هذا قبيح ، ما يذهبه ؟ فقالوا : تذهبه المواسي . فقال : أثر موسى قبيح ! قال : فجعلت الشياطين النورة . قال : فهو أول من جعلت له النورة . ثم قال أبو بكر بن أبي شيبة : ما أحسنه من حديث . قلت : بل هو منكر غريب جدا ، ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس ، والله أعلم . والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقة عن أهل الكتاب ، مما يوجد في صحفهم ، كروايات كعب ووهب - سامحهما الله تعالى - فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل ، من الأوابد والغرائب والعجائب ، مما كان وما لم يكن ، ومما حرف وبدل ونسخ . وقد أغنانا الله ، سبحانه ، عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ، والله الحمد والمنة . أصل الصرح في كلام العرب : هو القصر ، وكل بناء مرتفع ، قال الله ، سبحانه وتعالى ، إخبارا عن فرعون - لعنه الله - أنه قال لوزيره هامان (ابن لي صرحا لعلني أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى) الآية [غافر : 36 ، 37] . والصرح : قصر في اليمن عالي البناء ، والممرد أي : المبني بناء محكما أملس (من قوارير) أي : زجاج . وتمريد البناء تمليسه . ومارد : حصن بدومة الجندل . والغرض أن سليمان ، عليه السلام ، اتخذ قصرا عظيما منيفا من زجاج لهذه الملكة ; ليربها عظمة

سلطانه وتمكنه ، فلما رأّت ما آتاه الله ، تعالى ، وجلالة ما هو فيه ، وتبصرت في أمره
انقادت لأمر الله وعرفت أنه نبي كريم ، وملك عظيم ، فأسلمت الله ، عز وجل ، وقالت
: (رب إني ظلمت نفسي) أي : بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس
من دون الله ، (وأسلمت مع سليمان الله رب العالمين) أي : متابعة لدين سليمان في
عبادته الله وحده ، لا شريك له ، الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا .